أولا : المناهج السياقية

المحاضرة الأولى : الانطباعية.

المحاضرة الثانية : المنهج التاريخي.

المحاضرة الثالثة :المنهج الاجتماعي.

المحاضرة الرابعة :المنهج النفسي.

المحاضرة الخامسة : المنهج التكاملي.

المنهج الانطباعي ، الانطباعية

1_ النشأة

أ_ المفهوم .

ب_ أعلام المنهج .

2_ الانطباعية في النقد العربي

3_الانطباعية بين الذوق والعلم :

4_ خصائص الممارسة النقدية الانطباعية.

المحاضرة الأولى : المنهج الانطباعي ، الانطباعية

1_ نشأة الانطباعية :

أ_ المفهوم :

ليس من اليسير إعطاء تعريف للانطباعية ، أهي نزعة أم رؤية أم مذهب أم منهج ؟، ولكنّها تظل في كل الأحوال" تشير إلى ذلك اللقاء الآني والساذج بين النص والقارئ ، والتغيير الذي ينتج عن ذلك في نفسية القارئ ... وبذلك فإن الناقد لا يمكنه أن يخرج عن ذاته حين يتكلّم عن كتب الآخرين ، وبما أن أي يقين مستحيل ، فإنه لا يمكن أن نُنْشِأ موضوعيا حكما نقديا."[1]

أما قاموس (لاروس)؛فيبدو أنه تعمّق أكثر في مسألة نشوء الانطباعية (Impressionnisme) حيث يعرّفها بأنها :"مدرسة فنية تشكيلية ظهرت بين عامي 1874_1886 من خلال ثمانية معارض بباريس ، وقد جسّدت قطيعة الفن الحديث مع الأكاديمية الرسمية."[2] وأنّها اتجاه يسعى إلى " تقييد الانطباعات الهاربة وحركية الظواهر بدلا من المنظر الثابت.."[3] وهي تحصر وظيفة الفنان في اقتناص انطباعاته البصرية أو العقلية بخصوص موضوع ما وليس في تصوير ذلك الواقع الموضوعي .

وتنسب الانطباعية إلى لوحة تشكيلية مغضوب عليها ، عنوانها (انطباع) (Impression) رسمها الفنان الفرنسي كلود موني (c. Monet) عام 1872 ، ولم تعرض إلا عام 1874 ، وفي قاعة الإنتاج المرفوض (Salons des refusés) مع لوحات أخرى لعشرين فنانا ، رفضت لجنة الحكام عرضها على أساس عدم أحقيتها لذلك.

ثم انتقلت الانطباعية من مجال الفن التشكيلي إلى مجال النقد الأدبي على أنها **((منهج ذاتي حر ، يسعى الناقد من خلاله إلى نقل ما يشعر به اتجاه النص إلى القارئ ، تبعا لتأثره الآني والمباشر**

بذلك النص ، من دون تدخل عقلي أو تفكير منطقي صارم ، وسيلته الأساسية في هذا المسعى الذوق الفردي الذي يعكس تأثر الذات الناقدة بالموضوع الإبداعي؛ إذ يتخذ الناقد من النص الأدبي مناسبة للحديث عن ذاته وأفكاره الخاصة ، وما يتداعى في ذهنه من مشاعر وذكريات ، مُحتكما في نقل انطباعاته حول النص على الذوق أساسا .))

ب_ أعلام المنهج الانطباعي :

من زعماء المنهج الانطباعي الغربي نذكر : **سانت بيف (Sainte Breuve)** (1804_1896) الذي كان يكتب النقد بلغة الشعر ، **وأناطول فرانس (A. France)** (1844_1924) الذي كان يصدر في نقده عن إيمانه بأنّنا " لا نحب المؤلفات الأدبية لأنها جيدة ، بل تبدو جيّدة لأنّنا نحبّها." والناقد الحقيقي _في نظره_ هو من يستميل القارئ ويستهويه ويجذبه إليه حتى ينسيه نفسه وكل ما حوله ، وينقله إلى عالم خاص.

وكذلك **أندري جيد (A . Gide)** (1869_ 1951) الذي جعل من العملية النقدية اعترافات ذاتية ، وتعبيرا عن الأفكار الخاصة ؛ حيث يتّخذ النصوص المدروسة مطية لتلك الاعترافات،و **غوستاف لانسون (G ; Lonson)** 1857_1934 الذي ظلّ _ مع انتمائه التاريخي الواضح_ مؤمنا بأنّ الانطباعية هي المنهج الوحيد الذي يمكّننا من الإحساس بقوّة المؤلفات وجمالها شريطة استخدامها بحذر شديد .

2_ الانطباعية في النقد العربي :

انتقلت الانطباعية إلى النقد العربي بتسميات مختلفة (المنهج التأثيري ، أو الذاتي أو الذوقي أو الانفعالي ...) وقد أجمعت جملة من الدراسات كـ " دراسة الأدب العربي " لمصطفى ناصف و"المرايا المتجاورة" لجابر عصفور ... على أنّ طه حسين (1889_1973) هو زعيم النقد الانطباعي حتى وهو في عزّ التحامه بالمنهج التاريخي ؛ لأنّه أدرك أن طبيعة النص الأدبي ليست في يد المؤرّخ ، وأنّ الحضور الانطباعي ضرورة يقتضيها النقص الذي يواجه الناقد / المؤرّخ .

وبمثل ذلك يؤمن تلميذه ((مُحَمَّد مندور)) (1907_1965) الذي تظلّ الانطباعية الثابت النقدي الكبير في تحوّلاته المنهجية المختلفة (اللغوية ، التاريخية ، الإيديولوجية ....) لاعتقاده أنّ " المنهج التأثيري الذي يسخر منه اليوم بعض الجهلاء ، ويظنونه منهجا بدائيا عتيقا باليا ، لا يزال قائما وضروريا وبديهيا في كلّ نقد أدبي سليم ، مادام الأدب كلّه لا يمكن أن يتحوّل إلى معادلات رياضية أو إلى أحجام تقاس بالمتر والسنتي أو توزن بالغرام والدرهم . " [4]

وقد نذكر من بين رواد المنهج الانطباعي العربي الناقد الروائي المرحوم ((يحي حقي)) (1905_1992) الذي دعا نقاد الجيل اللاحق لجيله – في مقدمة كتابه ((خطوات في النقد)) – " أن لا يحطّوا على الفن كلاكل نظريات النقد المستوردة كلها فإنها تخنقه ..." [5] معربا عن انتمائه المنهجي (الانطباعي) الواضح ومعلّلا ذلك الانتماء : " لا أنكر أنني لم أخرج من دائرة النقد التأثيري فليس في كلامي ذكر للمذاهب ، لعلّ السبب أني لم التحق بكلية آداب في الجامعات ... لم أدرس النقد دراسة منهجية تاريخية ، ولا يسعدني شيء مثل أن يفسح هذا الكتاب مجال القول في هذا النوع من النقد الذي أتقدّم به إلى القراء." [6]

وقد عمّق هذا الانتماء سنوات قبل وفاته ، إ ذ تمنى أن يجد أتباعا لــ" هذا اللون من النقد الذي أتشيع له وأدعو إليه ، ولا أتنازل عنه على الاطلاق ، وهو النقد الذي أطلق عليه لفظ (النقد التذوقي) ، فلا يحكمون على الأعمال الأدبية المليئة بالمشاعر والأحاسيس بالنظريات وبالقلم والمسطرة والتقسيمات النظرية الجافة ." [7]

ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الأسماء اسما نقديا انطباعيا آخر هو الناقد اللبناني الراحل ((إيليا الحاوي)) الذي يتميّز بكثرة مؤلّفاته النقدية التي تحتفي بالانطباع الذاتي واللغة الإنشائية وتدير ظهرها للمرجعية العلمية والتوثيق الأكاديمي ، شأنه في ذلك شأن الناقد ((حسن فتح الباب)) في مجمل كتاباته النقدية ((رؤية جديدة لشعرنا القديم ، شعر الشباب في الجزائر ، شاعر وثورة ...)) التي تعجّ بهذه الروح الانطباعية الطاغية التي قادته إلى دخول معركة (الانطباعية والعلمية) مع الناقد الجزائري الراحل ((أبو العيد دودو)) (1935-2004)).

3_ الانطباعية بين الذوق والعلم :

وقد وقع صراع حاد بين مُحَمَّد مندور و زكي محمود نجيب عام 1948 ، كان موضوعه : هل يقوم النقد على " الذوق" أو على " العلم" ؟

فبينما كان مندور يرى أنّ النقد ليس علما ، وما ينبغي له أن يكون ، وأنّ قوام النقد ومرجعه يعود كلّه إلى الذوق ، وأنّ للذوق الشخصي الكلمة العليا في نقد الفنون ، وأنّ الذوق المقصود هو الذوق المدرّب المصقول بطول الممارسة القرائية والتحليلية والفهمية ؛ أي " الذوق المعلّل في حدود الممكن ، وإن كانت ثمّة أشياء(لا تؤديها الصّفة) .." [8] وفي ذلك إحالة واضحة على عبارة إسحاق الموصلي " إنّ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة."

وعلى العكس من مندور يرى زكي محمود نجيب أن النقد علم ، والعلم عنده هو ((منهج البحث ؛ أي مجموعة القوانين التي تفسّر الظواهر)) مرجعه إلى العقل لا إلى الذوق ، وأنّ الاحتكام المطلق إلى الذوق هو إشاعة للفوضى النقدية ، وأنّ في كلام مندور خلطا بين قراءتين: فالقارئ(الذي سيصبح ناقدا) إنّما يقرأ القراءة الأولى ، فلا يسعه إلا أن يحبّ ما قرأه أو أن يكرهه ، ثمّ يهمّ بالكتابة ليوضّح وجهة نظره ؛ أي ليعلّل رأيه ، والتعليل عملية عقلية لأنّه ردّ الظواهر إلى أسبابها ومعنى ذلك أنّ الذوق خطوة أولى تسبق النقد ،إذ النقد يجيء تعليلا له ، فهنالك إذن _ مرحلتان_ : مرحلة أولى ، يميّزها ذوق يختار ما يقرأ (يحبّ أو يكره) لا يتجاوز دوره إعداد المادة الخام للعملية النقدية .

ومرحلة ثانية ، يميّزها عقل (والعقل عند زكي نجيب محمود) معناه المنهجية العلمية) يحلّل ويعلّل ويفسّر ويستعين بكل ما أمكن من علوم ...

وبعد مرور نحو 16 عاما من تلك المعركة بين الناقدين ، رأينا مُحَمَّد مندور يميّز ــ في نطاق النقد التأثيري الانطباعي ــ بين مرحلتين أساسيتين : مرحلة (الذوق الفردي) ثم مرحلة (التبرير والتفسير الموضوعي) ، معربا عن أنّ الناقد الذي يقف على عتبة " المرحلة التأثيرية مكتفيا بأن يقول : هذا جميل وذاك قبيح ، وهذا أسود وذاك أبيض ، فهو في الحقيقة لا يعد عندئذ ناقدا على الإطلاق ، بل يعتبر معتوها أو مستهترا لا يعبأ بما يقوله أحد ولا ينبغي أن يعبأ ." [9] وقد عاود الإعراب عن القناعة ذاتها في كتابه المتأخر (معارك أدبية) الذي يتصدره مقال عنوانه ((مذهبي في النقد)) يلخص فيه انطباعاته الراسخة يقول : " ... والنقد التأثيري لا زلت أعتقد أنه الأساس الذي يجب أن يقوم عليه كل نقد سليم ، وذلك لأنّنا لا يمكن أن ندرك القيم الجمالية في الأدب بأي تحليل موضوعي ، ولا بتطبيق أية أصول أو قواعد تطبيقا آليا ، وإلا لجاز أن يدّعي مدع أنه قد أدرك طعم هذا الشراب أو ذاك بتحليله في المعمل إلى عناصره الأولية ، وإنّما تدرك الطعوم بالتذوّق المباشر ، ثم نستعين بعد ذلك بالتحليل والقواعد والأصول في محاولة تفسير هذه الطعوم وتعليل حلاوتها أو مرارتها على نحو يعين الغير على تذوّقها والخروج بنتيجة مماثلة للنتيجة التي خرج بها الناقد بفضل ملكته التذوّقية المدرّبة المرهفة السليمة التكوين."[10]

ثم يختم مقالته بالإشارة إلى أنّ مذهبة النقدي قد استقر في صورته المنهجية الأخيرة على أساسين أثنين : أساس إيديولوجي ينظر في المصادر والأهداف وفي أسلوب العلاج ، وأساس فني جمالي ينتظم في مرحلتين أحاول دوما أن أجمع بينهما في أي نقد تطبيقي أقوم به وهما : المرحلة التأثيرية والتي أبدؤها دائما بأن أقرأ الكتاب المنقود قراءة دقيقة متأنية لأحاول أن أتبين الانطباعات التي خلّفها في نفسي ، ثم مرحلة التعليل والتفسير ، وهي المرحلة التي أحاول فيها تفسير انطباعاتي وتبريرها بحجج جمالية وفنية يمكن أن يقبلها الغير ، وأن تهديه إلى الإحساس بمثل ما أحسست به عند قراءتي للكتاب المنقود ." [11]

وواضح من خلال هذه الاستشهادات أن مُحَمَّد مندور قد اخذ بفكرة القراءتين كما ورد لدى زكي نجيب محمود دون أن يذكر بالذي أوحى له بها ، ثم جاء الأنصار فحسبوها له .

4_خصائص الممارسة النقدية الانطباعية :

أولا : محاربة القواعد العلمية والمعايير النقدية الأكاديمية ، والانتصار للذوق الذاتي الذي يشكّل مركز الدائرة النقدية الانطباعية .

ثانيا : الإفراط في استحسان النصوص ، أو استهجانها ؛ أي ما يسميه ((جابر عصفور بثنائية(الحب / الكره) والتي تيوسل بها الناقد جاعلا من حالاته المزاجية معيارا نقديا متقبلا .

ثالثا : الذوبان في النصوص المعجب بها ، والتماهي في أصحابها .

رابعا : العدول عن النصوص المدروسة إلى أجواء نائية من الهوامش والخواطر والذكريات الذاتية والتطويح بالقارئ في هذه الفضاءات القصية ؛ إذ غالبا ما تَحْمِلُ الناقد موجة تأثيراته الذاتية بعيدا عن النص ، لتلقي به في لجّة عواطفه الخاصة ، ويغدو " كمن تشغله التموجات الدائرية الممتدة على صفحة الماء عن الحجر الذي أثار هذه التموّجات ."[12] بمعنى أنّ الناقد حينها يكون تركيزه على المعلولات دون العلّة الأساسية التي ولّدتها.

خامسا : الإسراف في استعمال اللغة الإنشائية الشاعرية التي يطغى عليها ضمير المتكلم المفرد(أنا) ، وصيغة (أفعل التفضيل) وسائر الأساليب الانفعالية ...

حوصلة :

الانطباعية ضرورة شعر بها النقاد دائما ، فحين يكون الناقد مسرفا في المنهجية ينتهي به الأمر أن يفلت منه الجوهر ، وينسى أن الكتب لم تكتب لتفسر من وجهة أسبابها الخارجة عنها فقط ، ولكن أيضا لتوفّر انطباعا ولذة نفسية أو فكرية " ؛ وبالفعل فإنّ كل النقاد حتى أشدهم منهجية هم انطباعيون من ناحية ما . ومهما يكن من الأمر ، فلا يمكن أن ننكر بأن الانطباعية كان لها عظيم الفضل في منح الممارسة النقدية شيئا من الفتنة واللّذة ، ومع ذلك فالناقد ملزم دائما بالخروج من دائرة النظرة السريعة والسطحية للمؤلفات ، إلى ممارسة تعتمد شيئا من الصبر واليقظة وسعة العلم .

الإحالات :

[1] كارلوني و فيللو : النقد الأدبي ، تر : كيتي سالم ، منشورات عويدات ، بيروت _باريس ،ط2 1974،ص 70.
نقلا عن : يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ،منشورات جسور ، الجزائر ،2007ص8_14.

[2] Petit Larousse Illustré 1984 ; librairie Larousse ; Paris.1980 ; p515 .

[3] Lbid , 516 .

[4] مُحَمَّد مندور : الأدب وفنونه ، دار النهضة مصر ، القاهرة ، دط ،دت ،ص140.

[5] يحي حقي : خطوات في النقد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1976،ص09.

[6] المرجع نفسه ، ص10.

[7] حوار مع يحي حقي أجراه : مُحَمَّد العباسي ، مجلة (العالم) ، السنة السادسة ، العدد 292، 16 سبتمبر 1989.

[8] المرجع نفسه ،ص 165.

[9] مُحَمَّد مندور الأدب وفنونه ،ص140_141.

[10] مُحَمَّد مندور ، معارك أدبية ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، دط ، دت ، ص05.

[11] المرجع نفسه ،ص 07.

[12] جابر عصفور : المرايا المتجاورة _ دراسة في نقد طه حسين _ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1983،ص309.